

محمد

قصته بقلم
بارك بيبي

أنشودة البحر

محمد ... يا محمد ... ويلي عليك يا محمد ...
يا محمد .

يلو النداء في الظلام . يخفت النداء في الظلام .
تختلط الاصوات ، والاضواء المشعة تهتك حرمة الليل
البهيج وهدير الموج المتلاطم على الصخور
محمد ... يا محمد ... يا محمد ...
يلو يخفت النداء ليلو ويخفت .

نفاقا يعشقونك في حرّ الصيف يا بحري يا بحر .
رعدة القرّ في حشو حشو الضلوع تهيج شوقي لحضنك
الدافئ . أقاوم الأتارة والشوق . أمد المتعة يجب أن
يطول .. تطول الرعدة في الضلوع في أخصم القدم ،
يجب أن تطول ليتأتى لقاء الاحضان سكرة غيبوبة
عميقة . أم تستعجلني يا بحري ؟ رعدة القرّ من أخصم
أخصم القدم ، من ظفر القدم الى شعرة البطن والراس
تهزّ الاسنان ، تحرك جلدة الجسم الضعيف كله ،
تصدر من الاحشاء والخلق أصواتا مني ولا أفهمها رغم
كراهيتي للصوت والكلام المسموع . ماذا يقول صوتي ؟
لا أدري . الصوت غير مألوف . لغة القرّ لا ارادية غريبة
المتعة ، وبريئة كفوغاء الوليد . أنا وليدك يا بحري .
أم تستعجلني تستعجل لحظة اللقاء ؟ دعني أقاوم رغبتني
ورغبتك لتطول الرعدة ، يطول الشوق والهفة ، لتكون
لحظة اللقاء غيبوبة وسكرا عميقا .

يдай مصلوبتان الى صدري ، احدهما تترك
دفع الابط لتمسك الفكّ المورور المهزوز لتخرس
الآهات والآحات الغريبة الصادرة عن حشو الضلوع
الراقص دون جدوى ... الفكّ يضحك يقهقه للقرّ
وهدير الموج ... ترتفع من حشو الضلوع رغما عني
قهقهة فاضحة ممتعة طويلة . جمع احدى اليدين يدفع
جمع الاخرى في الفوهة المقهقهة الفاضحة حتى لا تسمع
الا منك ومني ، وأشرق ، أكاد أختنق . المهم الا تسمعي
الاصوات اللاهثة تهتك حرمة الصمت البهيم ، توقعه
امواجي وامواجك .

محمد ... يا خبي محمد ... ويلي عليك
يا محمد ... يا محمد جاوبني . ضوء كاشف فضاح
يتردد فوق قمة صخرتي . لا بد لرأسي ان يستند الى

السوراء حتى لا يرسم ظلا هاديا للاصوات اللاهثة
والاضواء . الآن تزحج موقعي قليلا وأظافر رجلي تنعم
بدفئك يا بحر . قدماي الى ما فوق الكوعين قليلا ،
الى منتصف الساقين ، الى ما يقرب من الركبتين قليلا
تنعم بدفع غطائك كما كانت تنعم بدفع الغطاء أيام القر
والطفولة . عندما كانت ثماني أقدام أو عشر تنحشر في
شبه دائرة تحت الغطاء الصوفي تنصت بشغف الى
حكاية عبد الله البرّي وعبد الله البحري يرويهما الوالد
أو الوالدة . من يعشق الآن حكايات عاشقك البري يخطو
في اعماقك عاريا يقوده ابنك البحري ؟

– أغمض عينيك يا أخي .

ويتساءل البرّي متعجبا :

– ولماذا يا أخي عبد الله البحري ؟

– قلت لك أغمض .. ولا تفتحهما الا بأمرى .

– وكيف نسير مغمضين ؟

– هات يدك ولا عليك .

ويظل عبد الله البرّي يخطو متمسكا بنصيحة
صاحبه ويده . أصوات مغرية منادية تصله من هنا
وهناك لا يفهمها ... منها آهات وقهقهات وآحات ..
منها ما يشبه الشجار والتودد ... لكنه يظل مغمضا
مطيحا ... وأخيرا تتباعد الاصوات ويأمره صاحبه بأن
يفتح عينيه . يطوف عبد الله البري بعينيه فلا يرى الا
كائنات مائية عادية حولهما ، يرنو الى صاحبه متسائلا
متعجبا . فيرد عليه عبد الله البحري :

– يا أخي مررنا ببني يرذل ، قوم فجرة ظلمة
لا ذمة لهم ولا ضمير ، يتباهون بالظلم والفاحشة جهارا .
من رأيهم صار منهم . ويأمره من جديد بأن يفلق أذنيه
فيطبع ، واذا هما يمران بقبيلة غريبة الخلقة ، اقوامها
طالت السننتهم حتى حاذت ركبهم ، تعمل في حركة
دائبة دخولا وخروجا من أحشائهم ... وعندما
يتجاوزانها ويأمره صاحبه بأن يفتح أذنيه ، يجيبه قبل
أن يتساءل :

– أولئك يا أخي قوم بني نكران ، نامون يكذبون
ويحلفون على الكذب ، حتى طالت السننتهم كما ترى .
ومن سمعهم صار منهم .

وتظل أعاجيب عالم البحر تمرّ أمام عبد الله
البرّي ، وصاحبه البحري ينصحه عند كل مشهد
وقوم ، ويشرح له ، حتى شارفوا قوم عبد الله البحري ،
يرتع صبيتها في جنان زاهية مشرمة على أرض تربتها
ورمالها زبرجد ، حصاها لؤلؤ ، صخورها ذهب وفضة ،
تحيطها هالة الفضل والفضيلة ، أسواقها عامرة بلا
حراس ولا مراقبين . كل من أعجبه بضاعة أخذ منها
كفايته ، ووضع نظيرها ما يراه مكافئا ، لا مدارس
تتفنن الكذب ، ولا تجارة بالدين ، ولا سجون تعلم
الجريمة ، لا حاكم ولا محكوم ، لا سيد ولا مسود ،
مجتمع الفطرة على ايمان الفطرة . كلّ سيد نفسه ،

لا وسيلة ولا واسطة ، كل يؤمن بخالفه ويدعو له مباشرة في السر والعلن . واذا هما كذلك ، اذا بجماعة تتباكي نسوة ورجالا . تساءل عبد الله البري عن ذلك فأجاب رفيقه :

— هذه يا أخي أسرة رزقت مولودا !

— أو تبكون في الميلاد ؟!

— نعم . ونرقص عند الوفاة .

— عجباً اليس العكس أصوب واليق ؟

— يا أخي نبكي على الموائد خشية اختباره في الحياة ، ونبتهج عند الوفاة لنجاحه فيه .

محمد ... يا خيي محمد .. يا ولدي محمد ...
ويلي ويلي عليك يا محمد ...

اختلط النداء وتداخل بعضه في بعض . الاخْت بـ صوتها . انضمت الى النداء الزوجة ... والصحير وجملة معارف وأضواء كشافه فاضحة لبضع سيارات على الحافة توجه مصابيحها هنا وهناك متطوعة تحت الطلب . ولماذا يطلبونني يا بحري الحبيب ؟ لماذا يقطعون بأصواتهم لحظة وصال أشعر بها بدات ، أريد لمقدماتي أن تطول كما تريد أنت بلا شك . لماذا يجهزون على رغبتنا لسرع أو نتراجع . أنا محمدك البحري ، عبد اللهك . أعرف متى أغمض ومتى أصم ، وأعرف طريقي الى مدينة السعادة والفضيلة وهالة الصدق والايمن حيث يبكي الناس للحياة ويبتهجون للموت .

تقترب الاصوات ، تتجمع وتفرق لتتجمع . وينادي صوت قد وجد الثياب . ها هي ملابسه . تعالوا . تتجمع الاصوات حوله . اذن غرق محمد . يتحدث من رآه يتحرك على الشاطئ عاريا متابطا ثيابه . اذن غرق محمد ، يقول ذلك من علم انه حاول مرارا أن يغرق نفسه . مرة انتشل بقوة ومقاومة من هدير الموج . يقول ذلك صياد مسن . غرق ... لم يغرق . كيف يتحمل الصقيع والزمهرير والبحر عاريا ؟ غرق ... لم يغرق . ولكنهم لا يفهمون . قلت لهم مرارا ونحن نشيد البناية : يا اخوتي زيدوا فيها طوابق أخرى ، ثلاثة أو أربعة . المهم أن يصبح الواقف على سطحها وسط المدينة يرى مركز البحر مركز الدنيا . قالوا : وانت مالك ؟ خدام مثل الآخرين . مهندس ، مساعد مهندس ليكن . ولكنك مثل الآخرين مأمور ومأجور . يا اخوتي ماذا تفضلون : مشهدا مترامي الاطراف تبدو منه للناظر حافة الدنيا ومركزها ، أم رؤية مغمورة تقف حاجزا امامها المداخن وأعمدة النور وشبكات الاسلاك متصالبة كقضبان السجن ؟ قالوا : فضولي وأحمق وعنيد ولا يصلح لشيء . امراتي قالت نفس الشيء ، والاخ والوالدة والجيران ... كلهم متفقون . عينا الصفاء البحريتان المائيتان عند ابنتي نجوى وهدى كانتا تشعان ببريق الفهم والطموح ، الى رؤية مركز

الدنيا وحافتها وآفاق البحر الذي لا يمكن أن تجيء الا منه لتكون متلي هكذا .

قالت : يا بابا يجب أن ترتفع البناية ترتفع وترتفع يا بابا ترتفع ترتفع حتى نغيب في السحاب ونرى من على سطحها للامكة وقبة مولاي عبد القادر ... عينها الصغيرتان المائيتان قائلتان يا بحر . رنوت اليها بنهم ، رأيت امواجك تتلاطم في ماقيها بسكينة وهدوء . رأيت هالة الصدق والايمن والسعادة . كل ما قالت ان فكرتي تعجبها ولكنها لم تغفل الكثير مما قرأته في عينها وعرفت اني قرأته .

قلت للمحيطين : فهتمكم لا عليكم . سأعود منذ الغد لشغلي . اعتذر عن فضولي وأمارس وظيفتي في حدود اختصاصي لا أعتده . غمزت للصغيرة نجواي (وهي فاهمة) واعتذرت في سري لرفيقي عبد الله البحري حتى لا يحسبني من بني يرذل أو بني نكران وغيرهم ... ناموا جميعا . عيونهم جافة ناشفة ، وظلت عيون أربعة مائة ريانة تنتظر اللحظة لتغفل . خرجت مع نجواي . قطعنا الطريق الى مركز المدينة بسرعة وخفة . حراس الورش نيام . هيكل البناية لا زال كله ثغرات ، قزما تخين الردفين . نريد له ، نجواي وأنا ، أن يعلو ويتسق . صعدنا الى الطابق الذي أريد له أن يكون الاخير متقاعسا كسولا عن أن يحمل طبقات تؤدي الى مشهد للامكة وقبة مولاي عبد القادر . جعلت نجوى تتطلع الى البحر فلا تراه . أسفت . وشجعتني على فكرتي . كانوا قد بداوا بتزفيت السطح علامة الانتهاء . انخرطنا توا في العمل . نكسر ونقتلع الزفت قشرة قشرة بالفأس والاطافر ... انتهينا منه . وبدأنا نضع اللبناات متراسة فوق بعضها . فضحنا الصبح الفاجر المماليء . قلت : برهنوا لي على خطئي . أقنعوني بوجهة نظركم وأنا أعوض كل ما سببت من خسارة حتى ولو أفنيت عمري في ذلك . قابلتني العميون الجافة الناشفة بصمت ولا مبالاة . بعضهم كان ينظر اليّ نظرة الاسف كما كنت أنظر اليهم . أسفنا مشترك متبادل في اتجاهين متعاكسين . شعرت بهم يجسوني في الغرفة بعيونهم تلك ، يفصلون بيني وبين نجواي .

محمد ... يا محمد ... بابا ... بابا ... بابا . لا يا نجوى . يا بحر . لا أطيق الآن أن أسمع نجوى تنادي . واذا لم تعجل وتضمني اليك يا بحري تراجعت امام ندائها ... لا بد أن أصم ، أدفن أصابعي في مسمعي . رعدة تشتد فهقاتها في كياني المهتز الطرب وأنا أنحدر شيئا فشيئا بين أحضانك تحت غطاءك الدافئ يا بحر ... الصوت الساحر ينبعث من أعماقك الآن حنونا وقورا : بابا ... بابا ... بابا ... واماوجك تتلاطم بهدوء في عينين بحريتين قائلتين .

الرباط